

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

شهادة

محمد بن شريفة*

من سعادة المرء ومن حسن حظه في هذه الدنيا أن يحظى بصحبة أهل العلم، ويفوز برفقة ذوي الفضل. ولهذا أقول إنني كنت سعيداً ومحظوظاً بصحبة العالم الأستاذ الفاضل سيدي محمد بن تاويت الطنجي رحمه الله، خلال المدة التي قضاها في الرباط (1962-1966). وقد كانت هذه السنوات في المغرب سنوات تأسيس في البحث الجامعي والتحقيق العلمي. وشاءت الأقدار الإلهية أن يشهدها الأستاذ المرحوم ويسهم فيها بنصيب معلوم في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، وفي كلية الآداب بالرباط وفاس وكلية الشريعة بفاس، ودار الحديث الحسنية بالرباط.

لقد كان حضور الأستاذ محمد بن تاويت ورجوعه إلى المغرب بعد غيبة طويلة في المشرق ظن معها أن لن يعود إلى بلده :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

---

* عضو أكاديمية المملكة المغربية

فكيف كان ذلك؟

من المعروف أن الأستاذ المرحوم كان من البعثة الطلابية التي توجهت من تطوان إلى مصر في سنة 1938. وخلال دراسته بكلية الآداب وبعد حصوله على الإجازة، استبد به حب الاطلاع والبحث، وغلب عليه عشق المخطوطات - وكل ميسر لما خلق له - وهكذا وجد بغيته في دار الكتب المصرية التي كانت يومئذ ملتقى الباحثين والمحققين. وما لبث أن أصبح من المنقطعين إلى دراسة المخطوطات وتحقيق النصوص. وكان من الرواد المداومين، والقصاد المألوفين لدى موظفي دار الكتب المصرية بمبناها التاريخي بباب الخلق. وقد سمعته مراراً يحكي بعض ذكرياته فيها، ويسمي عدداً ممن كان يلقاهم بها، كالأستاذ فؤاد السيد، والأستاذ إبراهيم الأبياري، والدكتور عبد الرحمان بدوي، وغيرهم.

وقد قاده تحقيقه النموذجي لرحلة ابن خلدون واشتغاله بالمقدمة إلى السياحة في المكتبة العربية الإسلامية والتطواف بمختلف آفاقها وأرجائها. وغدا ينتقل من موضوع إلى آخر ويشتغل بأكثر من مخطوط. يساعده في هذا محصوله الأصيل من القرويين ومنهجه المكتسب من زيارة الأستانة محتد الخلافة العثمانية ومستودع المخطوطات العربية. وربما كان يظن أنها زيارة قصيرة، ولكن الأقدار شاءت أن تكن طويلة :

ذهبنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها دهرا

ولعل عودة الأستاذ محمد بن تاويت إلى المغرب - بعد إقامته بالمشرق التي نيفت على عشرين حولاً - لم تكن في الحسبان، كما قلت آنفاً، ولكن المشيئة الإلهية هيأت أسباب هذه العودة التي كانت خلال تولي الأستاذ المرحوم علال الفاسي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية.

وقد عرفت الأستاذ أول ما عرفته في هذه الوزارة التي طلب للعمل العلمي بها. وكنت أزوره في مكتبه بمبنى يقع في شارع قريب قبيل الخروج من العمل، لنجلس في إحدى المقاهي. وكان يجلس معنا أحياناً بعض الأصدقاء. وسرعان ما توثقت الصلة والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف كما في الأثر.

وإذا لم تخني الذاكرة، فقد جاء وحده أولاً، ثم التحقت به الأسرة

فيما بعد. وأذكر أنني كنت معه في البحث عن المسكن، فوجدنا أولاً ڤيلا بأكدال، ثم تبين أن بها رطوبة، ووجدنا بعدها شقة مناسبة في شارع باتريس لومومبا، هي التي ظل فيها إلى أن عاد إلى تركيا.

وأذكر أن إحضار مكتبته من تركيا وإرجاعها إليها كان مما شغل باله، لما كان لها من مكانة خاصة في نفسه. وكأني أرى الآن رفوفها وصفوفها، وأحدد صف مصورات المقدمة بينها في هذا البيت.

كان الأستاذ المرحوم عالماً زاهداً متواضعاً، يرتاح إلى أهل الطلب والمذاكرة. وقد منَّ الله علي برفقته، فكنت أزوره في المكتب، وأجالسه في المقهى، وأسايره في الشارع، وأوصله بسيارتي إلى مكتبه أو بيته. وكنت لا أجد مناصاً من قبول دعوته. وما أزال أتمثل تلك الألوان التركية التي تقف على تقديمها السيدة الفاضلة حرم الأستاذ، وأمها السيدة العثمانية الجليلة، وفرحة البنت أمل بنت الأستاذ التي كانت في الرابعة أو الخامسة من العمر، وهي الآن سيدة فاضلة، وأم وأستاذة في الجامعة. وكان الحديث يدور باللغة التركية. ولا شك أني خلال تلك المجالس كنت أسمع من الأستاذ المرحوم أو أسأله عن مسائل مختلفة ولكني لم أكن أدونها، كما أني لا أتذكرها كلها مع الأسف، ولا شك أن بعضها كان يتعلق بالتحقيق وقواعده.

ولعلي كنت أسأله عن بعض أعماله التي أنجزها أو التي كان يشتغل بها، ومنها «مقدمة» ابن خلدون، و«فهرست» ابن النديم و«ديوان الحطيئة» ... وغيرها. وأذكر أني سألته مرة عن عروض البلدان وأطوالها التي عني بتحديدها في حواشي «التعريف بابن خلدون»، فأخبرني أن معرفته بذلك كانت مما أخذه عن سيدي محمد العلمي بفاس. وقد كنت أشرت إلى هذا في الكلمة التي كتبتها عن الأستاذ بمناسبة ندوة ابن خلدون. ولم يكن الناس يلتفتون إلى تلك الأطوال، والعروض، أو يدركون ما وراءها، مع أنها من الجديد غير المعهود. ولهذا سألته عن أمرها، فأخبرني بما لم أكن أعرفه، وذكر هذه النقطة أيضاً المرحوم بن تاويت التطواني في المادة التي كتبها عن ابن عمه، وظهرت في الجزء السابع من «معلمة المغرب» الذي نشِر أخيراً. قال : «انقطع مترجمنا إلى شيخنا العلمي انقطاعاً كلياً، خدمه حتى

بانتساخ كتبه التي تسلك إلى المطبعة الحجرية بمجرد انتساخها، وما أكثرها بخطه الذي حافظت عليه المطبعة الفاسية، وأصبح متمكنا في علوم التوقيت على اختلافها، بالدرجة التي كان عليها الشيخ العلمي. ومن الذين درّسهم التوقيت من الكبار الفقيه محمد بن سعيد المكناسي وعبد الله كنون، وهو زوج أخته».

كان المرحوم بن تاويت الطنجي من كبار العلماء المتواضعين الذين لا يتحدثون عن أنفسهم وأعمالهم، ومن المستحيل أن يقول مثلاً عن نفسه هذا الكلام الذي أخبر به ابن عمه، وهو حقيقي وصحيح.

وعلى ذكر ابن تاويت التطواني، أذكر أني كنت مع ابن تاويت الطنجي في مقهى ترمنوس، فحضر ابن عمه الأستاذ التطواني، ودار حديث حول ديوان أبي الربيع الموحدي، وكأن التطواني استبطأ مراجعة ابن عمه للديوان، وأبدى شيئاً من العجلة وقلة الصبر، ورأيت الطنجي يأخذ الأمر بسعة خاطر ورحابة صدر وطيب نفس، ثم سمعت منه بعد ذلك تعليقاً حول مزاج ابن عمه وطبيعته، ونبهني ذلك إلى فرق ما بين الرجلين الذين عاشرتهما واحترمتهما وأحببتهما، رحمهما الله.

وما رأيت مثل الأستاذ المرحوم الطنجي في هدوئه وتواضعه وصبره وحلمه وزهده. وكان يميل إلى من يتحلى بهذه الصفات، ويثني عليه. وكنا أحيانا نجلس حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً في مقهى ترمنوس، وكان يمر من بعيد العالم المؤرخ سيدي عبد الكريم ولد الشيخ المحدث سيدي المدني الحسني ذاهبا راجلاً من محل عمله إلى بيته، فكان الأستاذ ابن تاويت يطيل العجب من هيئته في لباسه المغربي وسمته وقصده في مشيه، ويقول : ها هو ذا الرجل الخيِّر، ويثني على علمه واطلاعه.

وقد يظن من يسمع عن سعة اطلاع الطنجي وغزارة علمه وكثرة وقوفه على المطبوعات والمخطوطات، أنه ليس لديه وقت للمجالس والأندية، والأمر بخلاف هذا. أذكر أنه كان يذهب إلى مكتبة المكناسي عندما يكون الأستاذ المرحوم العابد الفاسي موجوداً بها. ولم أحضر هذا المجلس، ولكن الأستاذ ذكره مرة. ويبدو أن مشاركة الأستاذ في علوم شتى ووقوفه على ما لم يقف عليه غيره من مجالسيه أو مناظريه، كان

يترك آثاراً مختلفة في النفوس، فمن حامد لصنيعه، مشيد بعلمه، ومن حاسد على ما أنعم الله به عليه. ومع هذا، فلم أسمعه رحمه الله يشكو من أحد، أو يتظلم من شيء.

وقد رزق الشيء الكثير من غنى النفس وكرم الطبع، فلم يكن يبخل بفائدة أو يضن بكتاب، ولو كان مخطوطاً. وأذكر أنه حدثني مرة عن مصورة لمخطوط يشتمل على أشعار لشعراء أندلسيين قدماء، وقد شوش عليه أمر تحديد عصرها أن بين أولئك الشعراء واحداً يدعى بابن الخطيب، فشك في أمر المخطوطة. وقد أطلعني عليها، وظننت أنها مما يشتغل به فلم أطلبها منه. وجاء الدكتور إحسان عباس في زيارة علمية إلى المغرب، فذكرت له أمر المخطوطة، وإذا به يطلبها من الأستاذ فأعطاه إياها. وهذه المخطوطة هي «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتاني، التي نشرها الدكتور إحسان عباس بعد ذلك.

وأذكر أني كنت مشغولاً خلال هذا التاريخ بأمرين هما : دراسة آثار ابن العميد وتحقيق السفر الأول من «الذيل والتكملة». ومما أعتز به أن الأستاذ الطنجي كان من أعضاء اللجنة التي ناقشت رسالتي وكانت أول رسالة في الأدب تناقش في كلية الرباط.

ثم إن الأستاذ ابن تاويت رحمه الله أشار علي بتحقيق كتاب «التعريف بالقاضي عياض لولده»، وكان يود أن يُنشر في عهد إشرافه على منشورات وزارة الأوقاف. ولكن الله شاء أن لا يتم ذلك، فرجع هو إلى تركيا، وسافرْت في الوقت نفسه إلى مصر، لإعداد الدكتوراه في جامعة القاهرة. ولم ينشَر كتاب «التعريف» الذي حققته باقتراحه إلا بعد عودتي من مصر. كما كتِب لي أن أسهم بتحقيق جزء من «ترتيب المدارك» الذي كان هو البادئ بتحقيقه، والمكلف بإخراجه جميعه، لولا الظروف التي دعته إلى العودة إلى تركيا.

أما هذه الظروف التي عجلت بعودته إلى تركيا فكان منها ما أشار إليه عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة، ألا وهو شعور زوجته ووالدتها بالغربة والعزلة بسبب عدم معرفتهما باللغة العربية أو الفرنسية، وضاعف من هذا فقد وليدة غزيزة ولدت بالمغرب بسبب غلط طبي في تشخيص ما بها، وكان عبارة عن التهاب بسيط في الأذن

ظلت الصغيرة تشكو منه يوماً أو يومين، إلى أن تقيح وانفجر، وماتت الطفلة، فكان هذا صدمة كبيرة، وهذا يُضاف طبعاً إلى تماطل وتسويف وتأخير في تسوية وضعيته.

وأمام هذا كله لم يكن أمام الأستاذ رحمه الله إلا أن يلبي رغبة زوجه وأمها في العودة إلى تركيا. وقد كنت معه لما سفَّر الأسرة أولاً وشحن المكتبة ثانياً، وسافر هو بعد ذلك أخيراً. وسافرت - أنا أيضاً - كما ذكرت، إلى القاهرة، ولم تكن الظروف تسمح في مصر بمكاتبته في تركيا.

ولما عدت في سنة 1970، وصلتني منه رسالة يطلب فيها أن أقف على حصوله على شهادة من كلية الآداب بعدد السنوات التي درس فيها لحاجته إليها في الترسيم أو الترقية هناك. وقد بعثت إليه بالشهادة مع رسالة، وتلقيت منه رسالة بالوصول. وكنت أمني النفس بزيارته إلى أن جاء خبر وفاته، رحمه الله وأحسن إليه.

وبعد، فهذه مجرد إشارات سريعة إلى ذكريات، وسأقوم بالتوسع فيها فيما بعد. وقد كنت كتبت مقالة عنه بمناسبة ندوة ابن خلدون تحت عنوان «ابن تاويت محققاً لابن خلدون». وقرأت أخيراً المادة التي كتبها الأستاذ محمد بن تاويت التطواني عن ابن عمه، فوجدتها مختصرة جداً، ولعله كتبها في حال مرضه. ولا شك في أن هذه الندوة سينتج عنها توسيع ترجمة الطنجي وتدقيق مصادرها الكتابية والشفاهية. أما تحقيقاته ودراساته فهي مجال خصب للدرس والتحليل ولعل أحد الدارسين ينبري لكتابة أطروحة تعرف بفقيدنا تعريفاً أكاديمياً، وتدرس آثاره دراسة جامعية. وهذه أمنية نرجو أن تتحقق.

ولا أنسى أن أذكر بحق الرجل على بلده في أن تخلد اسمه كما رفع اسمها في الخارج.

والسلام